المحاضـــرة الرابعة:
سياسة الاستعمار الاسباني في الصحراء الغربية

01. الاهتمام بالفضاء الصحراوي:

في الواقع كانت التجارة تاريخيا مع بلدان السودان الغربي والأوسط والشرقي محتكرة لشعوب شمال القارة الافريقية (من ليبيا إلى المغرب الأقصى)، وتوفرت بلاد السودان على ما لا يقل عن 800 مركز عمراني، وازدهرت التجارة فيها وتطورت منذ القرن التاسع ميلادي، ومن ضمن هذه المراكز العمرانية والتجارية البارزة نذكر: غدامس، غات، ورقلة، قورارة، تومبوكتو، سجلماسة. وقد كانت القوافل تجهز في الشمال بطرابلس، القيروان، قسنطينة، الجزائر، تلمسان، فاس، مراكش، وكانت هذه القوافل تمر عبر مختلف الأسواق، في قلب الصحراء وتستغرق في رحلتها شهورا، فقافلة طرابلس الغرب إلى كانو تستغرق 125 يوما[1].

كانت البضائع تشمل المنتوجات المصنعة في الشمال الافريقي على غرار الأقمشة المختلفة، الأسلحة، السروج، الألجمة، النحاس، الكحول، إلى جانب البضائع التي تأتي من أوربا مثل البندقية، ميلان، برشلونة[2].وبدل الوساطة التاريخية التي كانت تمثلها سكانة شمال المغرب العربي بين أوربا وأعماق الصحراء، أراد الاستعمار أن يستغل هذا الواقع الاقتصادي الضارب في التاريخ، كي يهيمن على هذه الطرق التجارية، مستغلا كتب الرحالة العرب الذين جابوا الصحراء، ومن ضمن من درس هذه الطرق قودراي (Goudray) الذي اهتم بعلاقات تلمسان الزيانية مع بلاد السودان من الناحية التجارية، وإدوارد بلان (Edouard Blanc) الذي ألف دراسة هامة ووضع لها خريطة جامعة، حدد فيها حتى تلك الطرق التي سلكها المغامرون الأوروبيون أواخر القرن الثامن عشر والتاسع عشر، على غرار طريق مراكش إلى تومبوكتو عبر تيندوف، وطريق وهران إلى تومبوكتو عبر عين الصفراء، وطريق قسنطينة إلى آمقيد والهقار عبر تماسين وورقلة، وطريق طرابلس إلى تومبوكتو عبر غدامس[3].

---

[1]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص، 140-141.

[2]- المرجع نفسه، ص، 142-143.

[3]- المرجع نفسه، ص،91-93.

دشنت في الواقع فرنسا مشاريع النقل الصحراوي باقتراح كاباني (Cabanis) سنة 1853مشروع خط حديد يمتد من الجزائر إلى بوسعادة، وورقلة على أن يتفرع بد ذلك إلى فرعين واحد إلى تونس وطرابلس والآخر إلى عين صالح والهقار، كما برز المهندس أدولف دبونشيل منذ 1858 الذي ألح على ضرورة مقاومة التوسع الانجليزي، بمد خطوط السكة الحديدية لربط المستعمرات الفرنسية ببعضها البعض[4]، واقترح دوريان خطا من وهران إلى توات عبر تلمسان وسبدو[5]، كما عرض الجنرال كلونيو (Clognieu) خطا من مستغانم إلى تيارت، عين صالح، السرسو، المنيعة، تيميمون، وذلك بعد أن شارك في اللجنة العليا التي أسستها وزارة الأشغال العمومية لدراسة مشاريع السكك الحديدية بين الجزائر والسنيغال[6]، واقترح الضابط برنار (Bernard) مد خط حديدي من بسكرة إلى النيجر وتشاد[7].

وكان حرص الادارة الاستعمارية على مد خطوط السكة الحديدية في عمق الصحراء يتماشى مع منافسة الانجليز في المستعمرات، على غرار خشية الفرنسيين من سقوط السينغال، الكونغو، تشاد في أيديهم (الانجليز)[8]، ونضرا للتكاليف الباهظة وقساوة الطبيعة، إلى جانب تطور حركة الطيران جعلت الفرنسيين يكتفون بخطوط وصلت حتى ورقلة، وبشار، وهي الخطوط التي كان مبرمجا أن تصل إلى مالي والسينغال، حيث وفي هذه الظروف دخلت اسبانيا على خط المنافسة في الفضاء الصحراوي، كي يكون لها بدورها مجالا صحراويا يشكل امتدادا جغرافيا لها.

---

[4] -Adolphe Duponchel, *Le chemin de fer transsaharien, jonction coloniale entre l'Algérie et le soudan, Etude préliminaires du projet et rapport de mission avec carte générale géographique*, Edition Montpelier, France, p,371.

[5] - I.Derien, Le chemin de fer transsaharien d'Oran au au Touat par Telemcen, l'Oued Messaoura, Edition Bouchene, Oran, 1879, p,40.

[6] - Le général Colognieu, *Le trace central du chemin de fer transsaharien*, Edition Adolphe, Alger, p.29.

[7] -L.C.F.Bernard, *Le chemin de fer transsaharien*, Edition Adolphe, Alger, 1900, p, 63-67.

[8] -Paul Leroy-Beaulieu, *Le chemin de fer transsaharien*, R.D.M, p, 83-120.

02.الصحراء الاسبانية:

الصحراء الإسبانية هو اسم كان يستخدم على المناطق التي كانت تحت الإسباني في الصحراء الغربية في الفترة ما بين 1844 و1975. ويعود سبب السيطرة الإسبانية على الصحراء الغربية كانت بهدف تحويل المنطقة إلى ميناء من أجل تجارة الرقيق، لكن في عام 1700 غيرت إسبانيا هدفها حيث باتت تعتمد على المنطقة من أجل النشاط الاقتصادي والصيد البحري بدل تجارة البشر التي تعالت أصوات بتجريمها في تلك الفترة .وبعد عقد اتفاق بين القوى الاستعمارية الأوروبية في مؤتمر برلين عام 1884 تم الوصول إلى نتيجة مفادها تقسيم مناطق النفوذ في أفريقيا فسيطرت إسبانيا على الصحراء الغربية والتي طورتها على أساس أنها مستعمرة إسبانية. بعد عام 1939 وجراء اندلاع الحرب العالمية الثانية، كانت هذه المنطقة تُدار من قبل الحماية الإسبانية . ونتيجة لذلك، قام أحمد بلبشير حسكوري رئيس مجلس الوزراء والأمين العام للحكومة الإسبانية المغربية بالتعاون مع الإسبان من أجل اختيار المحافظين في المنطقة. وفعلا هذا ما وقع حيث حصل لوردات على مناصب بارزة وعالية وعلى رأسهم أسرة ماء العينين التي تحكمت في المنطقة لعقود طويلة جنبا إلى جنب مع قياد إسبان ساميون والذي سهل لهم بلبشير الحكم في الإقليم[9].

03.تفكيك الصلات الجماعوية:

كان المجتمع الصحراوي مجتمع بسيط مركب من صلات دموية، لحمية، تعيش في شكل حلقات عشائرية، يحكمها العرف وتديرها مؤسسة الجماعة التي تتشكل من أعيان يفرزهم فارق السن والثروة[10]، يكفلون إدارة المنافع العامة، ويسهرون على ترتيب المعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية، وفق سياقات دلالية تكون فيها أمانة الكلمة، صدق الوعد، شهامة الرجولة كمعايير أخلاقية- ممارستية كانت بديل عن القانون النصي الذي كان سائدا في المجتمعات المدنية الأكثر تعقيدا، والتي انخرطت في تأسيس مفاهيم الدولة الحديثة[11].

---

[9] -http/ www.wikipedia.org.

[10] -Eugénes Vayssettes, *op.cit*, p.33

[11]- حول الدولة مفهوم الدولة الحديثة وكيفية اشتغالها في أوربا يرجى الرجوع إلى:

Sandor Bethon, *La naissance de L'État moderne européenne et les changements de la fonction,* délkelet europa-south-east europ international relation quarterly,Vol. 1. No. 4 (Hiver 2010/4.).

وضعت إدارة الاحتلال نصب عينيها مشروع تفكيك مؤسسة الجماعة، وإعادة تركيبها وفق تصورات تجعل منها آداة هشة قاصرة ذاتيا في التعاطي مع واقع اقتصادي واجتماعي تغير بشكل جذري، وتحوير دورها من مؤسسة محلية تشتغل بشكل أفقي، إلى شكل عمودي ينفذ قرارات فوقية تمليها الإدارة الاستعمارية[12].

04.حرب الاجتثاث والتفرقة:

عمد الاستعمار الاسباني على اعادة رسم الخارطة الاجتماعية وذلك باجتثاث القبائل والجماعات الريفية من مواطنها الأصلية وتشتيتها عبر نقاط تدفعها إلى تشتتت روابطها النفعية كما تدخل الإنسان والأرض في علاقات هلامية نفعية بعيدة عن الصلة الأصولية- الترابية، حيث كانت هذه العملية تجر وراءها مشروعا استعماريا يكفل السيطرة على أجود الأراضي الزراعية والفضاءات الاستراتيجية والمحاور الحيوية التي عاشت عليها القبائل[13].

لقد كانت حرب الشتات الاجتماعي على القبائل منظمة وفق بعدين الأول عسكري جاء كرد فعل على الثورات الشعبية والانتفاضات المحلية التي حملت راية دحض الاحتلال، والبعد الثاني أخذ طابع القوانين العقارية التي أُشهرت من حين لآخر، والتي لازمتها عمليات ضخمة ومعقدة بميزانيات كبيرة وتأطير إداري ومن خبراء عقاريين ومهندسي خرائط متخصصين تابعين لمصلحة الطوبوغرافيا[14].

أما إذا أخذنا البعد الأول فنجده قد لازم الانتفاضات الشعبية، وذلك أن إدارة الاحتلال أيقنت وفق القراءات الأنثربولوجية أن هذه الثورات المحلية تختفي وراءها بنيات اجتماعية بنت تفوقها من انسجامها التاريخي وتداخل علاقاتها المنفعية التي نسجتها على مدلول الأرض والمصاهرات، وتقاسم العمل، تؤطرهم في ذلك مؤسسة المشيخة التي تكفل التوازنات وتصون العلاقات على تشعباتها واختلافاتها، لذلك أشهر الاحتلال عملية التهجير القصري للقبائل التي نظمت الثورات، وكان الغرض من ذلك هو

---

[12] - Exécution du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863, *constitution des Douars commune*, procès-verbaux du Sénatus -Consulte: Tribu des Ameurs Cheraga, n° 14. D.R.C.C.

[13] – الهواري عدي، المرجع السابق، ص، 88.

[14] - *Comment s'exécuté le Sénatus- Consulte sur la propriété en Algérie*, signé A. poivre, Imprimerie F. Paysant, Alger, 1868, p. 16-21.

اجتثاثها من مواطنها، وتكسير وحدتها الترابية، وهو ما يحولها إلى مجرد شتات اجتماعي متناثر عديم القوة والمواجهة[15].

أما في البعد الثاني وهو البعد العقاري، فقد شُرعت قوانين تسنى لها إعادة رسم الخارطة الاجتماعية للقبائل، بعد أن فرضت عليها مفاهيم جديدة قامت على "التثبيت" "العزل" و"التفكيك"[16]، وهي مفاهيم لا تنسم مع الواقع الاجتماعي القبلي الذي تسري فيه الروابط الدموية والقرابة الأسرية بما جعلت بنيانه مرصوصا، حيث تبنت هذه القوانين، بعد تحييز مجالات القبائل، و تقسيمها إلى كيانات مستقلة عن بعضها البعض إداريا، اقتصاديا واجتماعيا[17].

04. قلب نمط الإدارة المحلية

نسج الاستعمار الاسباني الخارطة السياسية والإدارية على منوال التفكيك الترابي، وتحوير طوبونيمي، يحيل إلى هوية أوروبية بعيدة عن مدلولها المحلي ومبتورة في سندها التاريخي، فالصحراء تحوت إلى الصحراء الاسبانية ، وهي التسمية التي عمقت من الشرخ الوجودي والتاريخي لهذا الفضاء ما قبل وبعد الاحتلال ، وبهذا تم التخلي عن الاسماء المعهودة ومحوها على نحو يجعلها من الماضي المبتور ولا صلة لها بما جد من واقع كولونيالي أوروبي[18].

تلت هذه المرحلة وبإجراءات متفاوتة تغييرا في هرمية السلطة، عندما تم تفكيك نظامها السياسي الذي كان قائما منذ عهود، واسناده إلى سلطة الادارة الاستعمارية التي وضفت ترسانتها العسكرية والإدارية للسيطرة على المجال الصحراوي، الذي تحول إلى نقطة ارتكاز في المشاريع الاقتصادية والتجارية لإسبانيا التي وجدت لها منفذا في المحيط الاطلسي جنوبا، وهو ما مكنها من اقامة خطوط امداد بحرية شجعت حركة الملاحة لديها.

---

[15]- أوليفي لوكور غرانميزون، المرجع السابق، ص، 19، 20.

[16] - *Statistique et documents relatifs au Sénatus-Consulte sur la propriété Arabe*, Imprimerie impériale, Alger, 1863, p.271.

[17] -*Comment s'exécuté le Sénatus- Consulte, op.cit*, p.04.

[18] -Arthur Pellegrin, « Les appellations successives de l'Algérie, étude toponymie » *in documents Algériens, série culturelle*, n°74, novembre 1954.